بيت[1]، وظروف الهجرة الأندلسية الأخيرة (1609-1614م) نحو بلدان المغرب العربي من خلال "نفخ الطيب"[2].

ولد أحمد المقري ونشأ وتثقف في تلمسان (986هـ-1578م)، وقد ظل وفيا لهذا التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاه والحظوة في القاهرة ودمشق، وكانت مصادره تعتمد أساسا على الروايات ومعارفه كشاهد عيان لما وقع في الأندلس في حياته أو ما أخذ من الجيل الذي سبقه من أهل الأندلس المطرودين[3]. ومن الواضح أن إنتاج المقري غزير وحياته خصبة وتأثيره كبير، وكان يذكر محاسن تلمسان وجمالها وهو في المغرب والمشرق وكان يقارنها بفاس ودمشق. وتؤكد بعض الدراسات إلى أن الفتن التي عاشتها الجزائر في بداية العهد العثماني هي السبب في هجرة المقري نهائيا من تلمسان إلى فاس[4]. وأوجب المقام في هذا الصدد أن الوطن كان دائما في ذاكرة المقري وهو ما أشار إليه في هاذين البيتين:

بلد الجدار[5] ما آمر نواها* كلف الفؤاد بحبها وهواها.

---

(1) شهاب الدين، أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1939م، ج1، ص109-115.

(2) أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (تحقيق: د. إحسان عباس)، بيروت: دار صادر: 1968مج4، ص528.

(3) أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981، ج2، ص221-233.

(4) كثرة هجرة علماء تلمسان إلى المغرب خلال فترة المقري، وأشار إليها ابن مريم في كتابه: البستان، وابن سليمان في كتابه: كعبة الطائفين.

(5) بلد الجدار هي تلمسان.

يا عاذلي في حبها كن عاذري* كفيك منها ماؤها وهواها[6].

و يمتاز المقري بمعاصرته للأحداث (986-1041هـ/1578-1631م)، إذ عاش في نهاية القرن السادس عشر، وبداية القرن السابع عشر الميلادي، مما سمح له بمعاصرة الأحداث التي تحدث عنها، خصوصا المتعلق منها بالأندلس. إن المعلومات التي احتوت عليها مصادر المقري، تقدم لنا إطارا جديدا حول إثارة موضوع نداءات الاستغاثة الموجهة إلى السلطات العثمانية بعد سقوط غرناطة (1492م). ومن جهة أخرى منحنا "أزهار الرياض" معلومات مفيدة حول ظروف هجرة الأندلسيين في اتجاه بلدان المغرب العربي ومواقف الأهالي من ذلك.

أولا: نداء الاستغاثة الشعري:

لقد حفظ لنا المقري القصيدة الشهيرة التي وجهها الأندلسيون إلى الدولة العثمانية في شخص سلطانها بيازيد الثاني (886-918هـ/1481-1512م)، وهي قصيدة يستصرخ فيها صاحبها السلطان العثماني ويستغيث به لنصرة إخوانه المتنصرين[7]، ويصف له ما تنزله إسبانيا المسيحية برعاياها الجدد وما يصيبهم من تعسف ديوان محاكم التفتيش.

---

(6) أزهار، ج1، ص6.

(7) تتفق معظم الدراسات على أن مصطلح الموريسك (Moriscos)، استعمل بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلم الذي دخل المسيحية حديثا، وقد درج المؤرخون على استعمال مصطلح الموريسكيين كدلالة تاريخية للتعريف بآخر مسلمي الأندلس أو العرب المتنصرين، الذين فرض عليهم التنصير القسري ما بين (1499-1526)، وبقي أحفادهم حتى عمليات الطرد النهائي سنة 1609م.

للمزيد من التفاصيل راجع: سيمون، الحايك: "الدراسات الموريسكية في الخمس والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا"، في أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية حول (وضعية الدراسات

ومن المرجح أن هذه الرسالة أو القصيدة، وجهت بعد انتفاضة البشارات (1501م)، وما تلاه من إجراءات القمع ضد العرب المتنصرين، وذلك حوالي سنة 1505م، وهي تلخص وضعا آل إليه المسلمون في الأندلس بعد سقوطها بيد المسيحيين عام 1492م[8]. لقد كان سقوط غرناطة (1492م) نهاية للحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، وانتصارا للحضارة الغربية المسيحية، فالإسبان جعلوا من سقوط الأندلس مؤشرا لحركة الاسترداد، وتوحيد إسبانيا دينيا وجغرافيا. وقد تضمنت بنود معاهدة تسليم غرناطة حقوقا وامتيازات للمسلمين، سرعان ما تحولت إلى سياسة قمعية وخرق الاتفاقية المبرمة بين الطرفين الإسلامي والمسيحي، فاستهدفت تنصير وتهجير العناصر الإسلامية قسرا من غرناطة[9]. وإليك بعض ما ورد في تلك القصيدة المؤثرة في وصف أنواع الاضطهاد والتعسف الذي نزل بالموريسكيين، بعد ديباجة نثرية قصيرة وديباجة شعرية طويلة في تحية السلطان العثماني بايزيد:

سلام كريم دائم متجدد * ص به مولانا خير خليفة.

الموريسكية الأندلسية في العالم خلال الثلاثين سنة الماضية)، (جمع وتقديم: د. عبد الجليل التميمي)، زغوان: سيرمدي 1995، ص25-27.

(8) حول مضمون هذه القصيدة راجع: ليلى الصباغ: "ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هو أواخر عام 1568 والدولة العثمانية" مجلة الأصالة، عدد27، الجزائر سبتمبر-أكتوبر 1973، ص 118-119 وأيضا: محمد عبد الله، عثمان نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، القاهرة مكتبة الخانجي، 1987، ص 346-347.

- يلاحظ أن انتفاضة (1501م) قد تسببت في اتخاذ قرارات تعميد ودمج الموريسكيين.

(9) أسعد، حومد، محنة العرب في إسبانيا، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980م، ص 127-128، وأيضا: أحمد رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1991، 107-116.

سلام على مولانا ذي المجد والعلى *و من ألبس الكفار ثوب المذلة.

سلام عليكم من عبيد تخلفوا* أندلس بالغرب من أرض غربة[10].

وانطلاقا من هذه الأبيات يبدأ مشهد المأساة الموريسكية من مختلف الجوانب الإنسانية والحضارية والثقافية، فمن خلال المادة الشعرية التي بين أيدينا، يمكننا حصر هذه المأساة من خلال ثلاث مراحل كبرى[11]:

1. التنصير القسري:

تؤكد الوثائق المكتشفة في أرصدة محاكم التفتيش أن الإسبان لم يحترموا بنود معاهدة تسليم غرناطة، وحاربوا كل ما هو غير كاثوليكي، ووزعت محاكم التفتيش بيانا كاشفا عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي للوشاية بالمسلمين. وقد تسبب هذا البيان في محاكمة الآلاف من المتهمين الذين وقعوا في فخ الوشاية والحقد والانتقام، وحكم على الباقين بالسجن والجلد * والاسترقاق والتهجير[12].

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم *بدأ غدرهم فينا ينقص العزيمة.

وخان عهودا كان قد غرنا بها *و نصرنا مرها بعنف وسطوة.

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا* ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة[13].

---

(10) أزهار، ج1، ص109.

(11) Djemaa. Chikha. « Les Morisques dans la poésie Andalous » : in, ASI du C.I.E.M sur « Religion : identité et sources documentaires sue les Morisques Andalous ». Tunis. 1984, T1, pp. 171-180.

(12) لوي، كارديناك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية (1492-1640م)، (تعريب وتقديم: د.عبد الجليل التميمي) تونس: الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص114-115.

(13) أزهار، ج1، ص113.

لسلامة إسبانيا ووحدتها.[19] وقد واكب هذه السياسة أن اقتلعت إسبانيا جذور الموريسكيين التاريخية من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية:

أ. الناحية الدينية:

تعمقت روح الكراهية عندما أصدرت السلطات الأوامر بحرق المصاحف والآلاف من الكتب العربية الحاملة للعلوم والثقافات والتي قدرها المؤرخون بعشرات الألوف[20]. وكان الهدف من وراء هذه العمليات الإقصائية هو طمس معالم الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس وفي هذا السياق تشير القصيدة:

و أحرق ما كا[illegible] من مصاحف و خلطها بالزبل أو بالنجاسة.

وكل كتاب كان في أمر ديننا * ي النار ألقوه بهزء وحقرة[21].

ب. الناحية الثقافية:

لقد تم القضاء على الموروث الحضاري الإسلامي الذي خلدته الأندلس عبر الأجيال زهاء ثمانية قرون، حيث تشير القصيدة إلى ذلك صراحة:

و لم يتركوا فيها كتابا لمسلم *و لا مصحفا يخلى به للقراءة.[22]

ج. الناحية الاجتماعية:

منعت السلطات الإسبانية الموريسكيين من ارتداء الملابس العربية وأجبرتهم على تغيير أسمائهم العربية الإسلامية إلى أخرى إسبانية مسيحية.

---

(19) Fernand, Braudel. La méditerranée et monde méditerranéenne à l'époque de Philippe II. Paris. Armand colin. 2ed. 1966, p.577.

(20) محمد عبد الله، عنان، المرجع السابق، ص.346.

(21) أزهار، ج1، ص112.

(22) نفسه.

وقد بدلت أسمائنا وتحولت *بغير رضا وغير إرادة.[23]

وبإلحاح من البابا بروما أصدر ملك إسبانيا فيليب الثاني (1556-1598م) قرارات ذات تدابير صارمة في حق الموريسكيين منها توصيات اقتراحها رجال الكنيسة يمكننا حوصلتها في النقاط التالية:

- منع استعمال الألبسة العربية.
- إجبار الموريسكيين على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجمعة والأعياد.
- يمنع النساء من التنظيف ودخول الحمامات.
- يمنع على المرأة الزواج طبقا لمبادئ الشريعة الإسلامية.
- منع الآباء من تلقين أبنائهم الشعائر الإسلامية.
- إجبار الأطفال على حضور الحفلات الدينية المسيحية في الكنائس[24].

وقد تعرض الموريسكيين الذين كانوا يعيشون في مختلف مناطق الأندلس إلى إبادة جماعية وهذا حسب ما ورد في القصيدة:

وقد بدلت أسمائنا وتحولت *بغير رضا منا وغير إرادة[25].

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا *آسارى وقتلى تحت ذل ومهانة.

وسل بلفيقا[26] عن قضية أمرها *لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة.

ومنياقة[27] بالسيف مزق أهلها *كذا فعلوا أيضا بأهل البشرة[28].

---

(23) نفسه.

(24) لوي، كارديك، المرجع السابق، ص. 43

(25) نفسه.

(26) قلعة بالمرية أنظر: أزهار، ج1، ص41.

(27) البشارات جبل بمنطقة غرناطة.

والدرش بالنار أحرق أهلها بجامعهم[29] صاروا جميعا كفحمة[30].

3. الطرد:

ومن المعروف أن ترتيبات إقصاء الموريسكيين من إسبانيا وطردهم كان من أسبابه الجوهرية المقاومة المستمرة التي أبداها المسلمون في الأندلس طوال خمسة أجيال (1492-1609م)، لذلك أصدر فيليب الثالث (1598-1621م) بتاريخ 22 جمادى الثانية 1018ه الموافق ل 22 سبتمبر 1609م، مرسوما ملكيا يقضي بطرد جميع الموريسكيين. وجاء تبرير الملك حول هذا الطرد "... لقد حاولت منذ سنين طويلة على تنصير موريسكي هذه المملكة وإصداري لقرارات العفو المتتالية في شأنهم وبمساعدي رجال الدين في تحويلهم إلى ديانتنا المقدسة لكنهم أصروا على التمسك بدينهم..."(31)

ويتبين لنا عند دراسة بداية المأساة الموريسكية أن نداءات الاستغاثة بدأت بمراسلات مسلمي غرناطة للسلطات العثمانية ومطالبة بيازيد الثاني التدخل لدى البابا بروما، ومطالبة الاسبان باحترام حرية الأديان بمثل ما يحظى به الرعايا المسيحيين في البلاد الإسلامية ومن جهة ثانية السماح لهم بالهجرة وهذا تحدده الأبيات التالية:

فسل بابهم أعني المقيم برومه *بماذا أجازوا الغدر بعد أمانة.

وما لهم مالوا علينا بغدرهم *بغير أذى من غير جريمة.

---

(28) وربما يكون حصنا بالمرية أيضا، أنظر: D.Cheikha. Op.cit, p 177.

(29) المصادر التاريخية العربية والمسيحية تؤكد على مثل هذه الجرائم والممثلة في المقابر الجماعية المكتشفة في إسبانيا في سنة 1980 وهي تؤكد على صدق هذه الأبيات وكأنها ليست من نسج خيال البشري.

(30) أزهار، ج1، ص112.

(31) M. Garcia arenal. Los moriscos, Madrid. Biblioteca de visanarios. 1975,pp.251-254.

وقد بلغ المكتوبَ منكم إليهم *فلم يعلموا منه جميعا بكلمة.[32]

والذي شجع الموريسكيين على الهجرة صدور فتاوى من طرف فقهاء المغرب والتي أكدت على وجوب الهجرة "... أن الهجرة من أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة... ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية (الملك) لعنة الله على معاقلهم وبلادهم إلا قصور العجز بكل وجه، وحال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع..."[33]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفتوى تنصح وتحذر الأندلسيين وتشجعهم أيضا على الهجرة، وكأنها تحضر الأجواء النفسية والمادية لاستقبال اللاجئين في الضفة الأخرى من العالم الإسلامي وهذا على الصعيدين: الشعبي والرسمي.

ومن شاء من البحر مؤمنا *بما شاء من مال إلى أرض عدوة[34].

والواقع أن إسبانيا قد استغلت رخاء الأندلس من خلال هجرة الموريسكيين في بداية منتصف القرن السادس عشر، وهذا بفضل مصادرة أملاكهم وإرهاقهم بالضرائب. والمتتبع للأحداث التاريخية يلاحظ بأن الأجواء والخلفيات التي حفت صدور الطرد، كانت نابعة من إرادة سياسة محضة. لكن القصيدة التي أوردها المقري في "أزهار الرياض" تعكس وجهة القرار الذي كانت أبعاده أعمق بكثير حيث تتجلى في البعدين البسيكولوجي والاقتصادي معا. فعلى الصعيد البسيكولوجي، كان قرار الطرد يسبب الخوف والقلق المستمر من طرف الإسبان شعبا وحكومة الذين شاهدوا

---

(32) أزهار، ج1، ص 113-114.

(33) الونشريسي، المعيار والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (إشراف محمد حجي) بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1981، ج2، ص121-122.

(34) أزهار، ح1، ص108.

بأعينهم تصاعد الثورات والرفض المطلق الذي أبداه الموريسكيين ضد سياسة التنصير والإدماج. أما على الصعيد الاقتصادي فيتضح من خلال الحقد والانتقام النابع من نفسية المسيحي تجاه الموريسكي الذي عرف بنشاطه التجاري والحرفي المميز بالرخاء في إسبانيا المسيحية.

ثانيا: الهجرة الأندلسية الأخيرة:

وفيما يتعلق بالمرحلة الأخيرة من الهجرة الأندلسية (1609-1614م)[35] والتي أعقبت قرار الطرد الجماعي للموريسكيين من إسبانيا في فترة حكم فيليب الثالث، فإن الجهات الساحلية للجزائر قد استقطبت أعداد كبيرة من المهاجرين قسرا بواسطة السفن الإسبانية. فبعد صدور مرسوم نفي مسلمي بلنسية بتاريخ 28 سبتمبر 1609م تم ترحيل 28 ألف موريسكي إلى ميناء دانية و15 ألف أخرى إلى ميناء بلنسية وقد حملتهم السفن الإسبانية على نفقاتها الخاصة إلى مدينة وهران، بينما اعتمد المهاجرون الآخرون على أنفسهم في استئجار السفن والإبحار صوب السواحل الجزائرية[36]. ولجأت إسبانيا إلى نقل الموريسكيين رأسا إلى السواحل الغربية من إيالة الجزائر، خاصة وهران والمرسى الكبير وأرزيو ومستغانم، بحيث استغلت السلطات الإسبانية فرصة تواجدها العسكري في كل من وهران والمرسى الكبير لتسريب الآلاف من الموريسكيين نحو هذه المناطق. وقد عرفت الجزائر خلال هذه المرحلة هجرة مكثفة من

---

(35) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص133.

(36) عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة خلال مراحل الهجرات الثلاث الكبرى نحو المنطقة. المرحلة الأولى تمتد من 1212م (سقوط الحافرات الإسلامية بالأندلس كقرطبة 1236م، بتبسة 1283م، إشبيلية 1284م)، المرحلة الثانية تبدأ بسقوط آخر قلعة عربية إسلامية بالأندلس وهي غرناطة 1492م.

الموريسكيين الذين بلغ عددهم في مطلع القرن السابع عشر حوالي 25 ألف موريسكي[37]. ونظرا لأهمية الهجرة الأندلسية في المرحلة الأخيرة، أدت إلى تعبير المقري في كتابه "نفخ الطيب": "... فخرجت ألوف بفاس، وألوف آخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس..."[38].

وقد كان من نتائج التركيز المتواصل على وهران ومرسى الكبير في هذه العملية أن ضاقت المدينة وما جاورها بالموريسكيين. وتشير تقارير ربان السفن الذين شاركوا في هذه العملية الكبرى والموجودة بالأرشيف الإسباني (Simancas)، حيث تعرض علينا قوائم ومعلومات هامة حول عدد الموريسكيين الذين تم نقلهم وجنسهم (رجال، نساء، أطفال) ومكان نزولهم بالسواحل الجزائرية. فبتاريخ 17 أكتوبر 1609م، قاد المركيز سانتاكروز (El marquis de santa cruz) 17 سفينة أبحرت من إسبانيا[39] متجهة نحو وهران، وهي تحمل على متنها حوالي 3406 موريسكي[40]. وبعد أن ضاقت المدينة وما جاورها بالموريسكيين، أمر حاكم وهران الكونت "دي أقيلا" (Le duc d'aiguillon) بتاريخ 07 أكتوبر 1609م من القبطان المركيز سانتاكروز، قيادة ستة سفن لتحمل 6000 موريسكي، والعمل على نقلهم رأسا إلى المرسى الكبير. وبتاريخ 22 أكتوبر 1609، طلب الكونت دي أقيلا من ربان السفن الإسبانية لويس فراخدو

---

(37) ناصر الدين، سعيدوني: الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، حوليات جامعة الجزائر، العدد7، الجزائر، 1993، ص 113.

(38) المقري، نفخ الطيب، ج4، ص 528.

(39) أهم الموانئ الإسبانية المستعملة لترحيل الموريسكيين يومذاك هي: دانية، أليكانت، قرطاجنة ألفاكي، بلنسة، غراو، فيناروس.

(40) Henri. Lapyre. Géographie de l 'Espagne Morisque, Paris, S.E.V.P.E..N, 1959, p.57.

(Luis Fajardo) وخوان خيرونيمو (J.Jeronimo)، من قيادة سبعة سفن لحمل 3000 موريسكي إلى ميناء أرزيو ومزغران. كما تفاوض المسؤولون الإسبان مع قبائل المنطقة قصد مساعدتهم من أجل تسهيل عملية نقل الموريسكيين نحو تلمسان ومستغانم، وكانت هذه القبائل العربية تشمل (أولاد موسى، وأولاد إبراهيم، وأولاد سيدي عبد الله، وبني عامر)[41].

وتجدر الإشارة هنا أن بعض القبائل الوهرانية تعاونت مع الإسبان وأخلصت لهم من ناحية الولاء والطاعة. وكان على رأسها قبيلة قيزة ويقال لهم "جيدرزة" وهم فرقة من بني عامر، وكان مسكنهم بنواحي "تارقة" ولهم قوة وبطش وفتك بالمسلمين وعددهم نحو الثلاثة عشر دوارا، وسموهم اللصوص[1]. بالإضافة إلى أولاد عبد الله وهم فرقة من بني عامر أيضا، كان مسكنهم بملاتة، يبلغون الستين دوارا. وكانوا عونا للإسبان بالمنطقة الغربية للجزائر[2].

وأثناء انتقال المهاجرين الأندلسيين من وهران إلى المناطق المجاورة تعرض لهم الأعراب في الطريق ونهبوا أموالهم، حيث تذكر بعض المصادر أن بعض القبائل الوهرانية، كانت تقوم بأعمال وحشية ضد المهاجرين، فتفقر البطون آملة أن تجد فيها المجوهرات وتعمل على تجريدهم من كل ما يملكون وسار على هذا النهج المؤرخ أبو راس الناصري في كتابه "عجائب الأسفار" في حديثه عن المهاجرين الأندلسيين عمنا ارتكبته قبيلة (هبرة) بمناء أرزيو من تعذيب وتقتيل حتى أن هبرة بطشت بالأندلس:

---

(41) Chakib, Benafri, ENDALUS te Son Musuluman Kalintisi Morisko larin Cezayir, GOCU Osmanli yardi Mi (1492-1614), Ankara, 1989, pp.116-117.

1- عبد القادر، المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر (تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم)، بيروت: دار مكتبة الحياة بدون تاريخ.

2- المصدر نفسه، ص 29-30.

"... **يقرون بطوفهم لما يظنون من ابتلاع جواهر...**"[1]. مما دفع بالشيخ محمد أقـــدار الرجيبي الذي استنهض الشيخ أحميدة العبد وحثه على أن يغزو بعشائر ســـويد علـــى قبيلة هبرة (بين المحمدية وسيق)[2]. هذه الرواية فيها نوع من التزييف للحقائق والإفراط في المبالغة، فسوء المعاملة يمكن تخيله (و حتى قبوله)، لكنه يستبعد العمل الشنيع السالف الذكر صدوره من قبائل متحضرة، وعلى علم بإخوان لهم في الدين، ونظرا لما كـــان يتمتع به الأندلسيون من رغد ورفاهية في العيش قبل المرحلة لسقوط غرناطة.

إن بعض الرواة الغربيين والمغاربة مجمعون على أن بعض الموانئ والمدن بالمغرب العربي قد أساءت استقبال الموريسكيين، وخاصة في وهران وتلمسان حيث قام البـــدو بسلبهم وقتلهم. وقد كتب المؤرخ الإنجليزي شارل لي (Lea) حول هذا الموضوع: "لم يكن مسلموا تطوان متسامحين ... وقد أضيفت إلى الموريسكيين مأساة جديدة وهـــذا إلى درجة أن لم يكونوا فرحين ليعملوا أن هناك موريسكيين مسيحيين ثابتين في دينهم وقد رجموا أو قتلوا، وهذا نتيجة رفضهم دخول المساجد، وفي البلاد المغاربية وكقاعدة عامة، كانت آلام المهاجرين شنيعة جدا. وعندما نزلوا بوهران سعوا لتبني خطة إنشاء دولة موريسكية ... ولا شك أن الموريسكيين لم يكونوا يدركون الوضعية العامة، إلى

1- أبو راس محمد، الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، (تحقيق: محمد محي الدين)، القاهرة: مطبعة السعادة، بدون تاريخ، ص85

2- ابن سحنون، الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني (تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي)، قسنطينة: منشورات التعليم الأصلي، سلسلة التراث، 1973، ص 27-28.

أن عاينوا بأنفسهم كره العرب البدو لهم، وأنهم لا يرغبـــون الآن إلا في الرجـــوع إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين..."[1].

ولعل الصورة تبدوا أكثر وضوحا إذا حاولنا رصد ما كتبه المقـــري في "نفـــخ الطيب" حيث لم يشر إلى عملية بقر البطون والتقتيل، بل ذكر: "... فتسلط علـــيهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا بـــبلاد تلمســـان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة..."[2] ويفهم من سياق هذه الرواية أن الموريســـكيين لاقوا على أيدي إخوانهم بمنطقة تلمسان وفاس سوء المعاملة والمعاناة لا غير.

ومهما يكن من انتقادات لهذه الروايات، فإن بعض الباحثين المعاصرين تبنوا مثل هذه المواقف بهذه الفترة الحرجة، محللين إياها بشكل غير متوازن، وهو الأمـــر الـــذي جعلهم يركزون على الطابع غير الإنساني والسلبي لمواقف بعض الطبقات الاجتماعيـــة للأهالي[3]. هذه الوضعية الناجمة عن الفوضى الإدارية والسياسية للمغرب، كونها ظاهرة تاريخية قديمة، والمتمثلة في الصراع القبلي ونهب الأملاك لم يستطع النظام العســـكري العثماني القضاء عليها، على أساس أن الجزائر كانت دار جهاد ومحور صراع دائم مع القوى المسيحية في المنطقة[4].

1- شارلي، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة (تعريب: حسن الكرمي)، بيروت: منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، 1988، ص 212. يحاول المؤرخ الإنجليزي لي أن يقارن موريسكي وهران بالهورناتشيين (Hornachos) الذين هاجروا إلى المغرب واستقروا بقصبة الرباط، واسسوا مدينة سلا الجديدة.

2- المقري، "نفخ الطيب"، ج4، ص528.

3 - Ortiz, Domonguez, et Vincent. Bernard. Historia de los Moriscos Tragedia de una minoria. Madrid. Biblioteca de la revista de occidente. 1978. pp.225-245.

4- أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص141

وإذا كان بدو وهران وتلمسان قد نهبوا أو سرقوا أملاك وثروات الموريسكيين الذين حلوا بالساحل الغربي للجزائر، دون أن يقع القصاص عليهم، فهذا غير معقول لأن الأهالي لم يكونوا على علم بمأساة الموريسكيين السياسية والدينية، وعلى الخصوص حول نتائج طردهم من الأندلس، بل تم نهب هؤلاء الموريسكيين بسبب مظاهر ثراء البادية عليهم. ومن هذا المنطق تطرح التساؤلات التالية:

- هل كانت السلطات تعلم بما ارتكبه البدو في حق الموريسكيين؟
- وهل كان هؤلاء واعون بعملية النهب والسلب التي مارسوها تجاه هؤلاء الموريسكيين الذين التجئوا إلى الساحل المغاربي لالتماس الأمن والحماية؟

وحتى نتموقع هذين الحدثين الهامين في هذه الدراسة، فإن قصيدة الاستغاثة المدونة في أزهار الرياض جاءت لتخليد الموريسكيين في الشعر الأندلسي وهو في لحظات الاحتضار الأخيرة. فهذه الأبيات الشعرية تنم بالرغم من ركاكتها عن دقة مذهشة، في تتبع أعمال السياسية الإسبانية بمطاردة العرب المنتصرين وفي هذه إجراءات قمع محاكم التفتيش وعقوباتها. والظاهر أن صاحب القصيدة كان من الكبراء المتضلعين بالشؤون العامة زمنئذ. وعليه فإن المعطيات التي ذكرها المقري في نفخ الطيب بخصوص الهجرة الأندلسية الأخيرة، لا تترجم في الواقع إلا على مظهر من تفاصيل سوء المعاملة التي تعرض لها المهاجرون. ولا شك أن المعلومات التي أوردها المقري من شأنها تساعدنا على فهم نفسية المهاجرين وموقف الأهالي والسلطات حول عمليات السلب والنهب التي مورست في حق الموريسكيين.